المسيرة الدراسية فی تفسير القرآن الكريم

مباحث

المعنى

من مجمع البيان في تفسير القرآن

تفسير سور«يونس، هود، يوسف، الرّعد، الإبراهيم، الحِجر و النحل»

سورة الرعد

سورة الرعد فى لمحة

مكية كلها عن ابن عباس و عطاء و قال الكلبى و مقاتل مكية إلا آخر آية منها نزلت فى عبد الله بن سلام و قال سعيد بن جبير كيف تكون هذه الآية نزلت فى عبد الله بن سلام و السورة كلها مكية و قال الحسن و عكرمة و قتادة إنها مدنية إلا آيتين نزلتا بمكة ﴿ وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ ﴾ و ما بعدها. عدد آيها: أربعون و سبع آيات شامى و خمس بصرى أربع حجازى ثلاث كوفى. واختلافها: خمس آيات ﴿ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ الظُّلُماتُ وَ النُّورُ ﴾ غير الكوفى ﴿ الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ و سُوءُ الْحِسابِ شامي مِنْ كُلِّ بابٍ ﴾ عراقى شامى.

فضلها: أبى بن كعب عن النبى ص قال: «من قرأ سورة الرعد أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل سحاب مضى و كل سحاب يكون إلى يوم القيامة و كان يوم القيامة من الموفين بعهد الله تعالى». و قال أبو عبد الله عليه السلام: «من أكثر قراءة الرعد لم يصبه الله بصاعقة أبدا و إن كان مؤمنا أدخل الجنة بغير حساب و شفع في جميع من يعرفه من أهل بيته و إخوانه».

تفسير سورة الرعد

لما ختم الله سبحانه سورة يوسف بذكر قصص الأنبياء افتتح هذه السورة بأن جميع ذلك آيات الكتاب و أن الذى أنزله هو الحق تعالى فقال:

***

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

المر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١) اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢)

﴿ المر ﴾ قد فسرناه فى أول البقرة و بينا ما قيل فيه و روى أن معناه أنا الله أعلم و أرى ﴿ تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ ﴾ أى هذه السورة هى آيات الكتاب التى تقدم الوعد بها ليست بمفتريات و لا بسحر و الكتاب القرآن عن ابن عباس و الحسن و قيل إن الكتاب عبارة عن التوراة و الإنجيل عن مجاهد و قتادة و يكون تقديره تلك الأخبار التى قصصتها عليك آيات التوراة و الإنجيل و الكتب المتقدمة و الآيات الدلالات العجيبة المؤدية إلى المعرفة بالله سبحانه و أنه لا يشبه الأشياء و لا تشبهه ﴿ وَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ﴾ يعنى و هذا القرآن الذى أنزل إليك من ربك هو الحق فاعتصم بالله و اعمل بما فيه و على القول الأول فإنه وصف القرآن بصفتين إحداهما بأنه كتاب و الأخرى بأنه منزل ﴿ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى لا يصدقون بأنه منزل و أنه حق مع وضوحه ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ﴾ لما ذكر الله سبحانه أنهم لا يؤمنون عرف الدليل الذى يوجب التصديق بالخالق و يريد بالعمد السوارى و الدعائم و قيل فيه قولان (أحدهما) أن المراد رفع السماوات بغير عمد و أنتم ترونها كذلك عن ابن عباس و الحسن و قتادة و الجبائى و أبى مسلم و هو الأصح قال ابن عباس يعنى ليس من دونها دعامة يدعمها و لا فوقها علاقة تمسكها قال الزجاج و فى ذلك من

القدر و الدلالة ما لا شيء أوضح منه لأن السماء محيطة بالأرض متبرية منها بغير عمد (و الآخر) أن يكون ترونها من نعت العمد فيكون المعنى بغير عمد مرئية فعلى هذا تعمدها قدرة الله عز و جل و روى ذلک عن ابن عباس و مجاهد ﴿ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ قد مضى تفسيره و إذا حملنا الاستواء على معنى الملک و الاقتدار فالوجه فى إدخال ثم فيه و لم يزل سبحانه كذلک أن المراد اقتداره على تصريفه و تقليبه و إذا كان كذلک فلا يكاد القديم سبحانه يوصف به إلا و قد وجد نفس العرش ﴿ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ ﴾ أى ذللهما لمنافع خلقه و مصالح عباده و ﴿ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أى كل واحد منهما يجرى إلى وقت معلوم و هو فناء الدنيا و قيام الساعة التى تكور عندها الشمس و يخسف القمر و تنكدر النجوم عن الحسن و قال ابن عباس أراد بالأجل المسمى درجاتهما و منازلهما التى ينتهيان إليها و لا يجاوزانها و للشمس مائة و ثمانون منزلا تنزل كل يوم منزلا حتى ينتهى إلى آخر منازله ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ أى يدبر الله كل أمر من أمور السماوات و الأرض و أمور الخلق على وجه توجيه الحكمة و تقتضيه المصلحة ﴿ يُفَصِّلُ الْآياتِ ﴾ أى يأتى بآية فى إثر آية فصلا مميزا بعضها عن بعض ليكون أمكن للاعتبار و التفكر و قيل معناه يبين الدلائل بما يحدثه فى السماوات و الأرض ﴿ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ أى لكى توقنوا بالبعث و النشور و تعلموا أن القادر على هذه الأشياء قادر على البعث بعد الموت و فى هذا دلالة على وجوب النظر المؤدى إلى معرفة الله تعالى و على بطلان التقليد و لولا ذلک لم يكن لتفصيل الآيات معنى.

***

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

لما ذكر سبحانه و تعالى فى الآية من نعمائه و آلائه على عباده فى رفع السماوات و تسخير الشمس و القمر و دل بذلک على وحدانيته عقبه بذكر الأرض و ما فيها من الآيات فقال ﴿ وَ هُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ ﴾ أى بسطها طولا و عرضا ليتمكن الحيوانات من الثبات فيها و الاستقرار عليها ﴿ وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ ﴾ أى جبالا ثوابت لتمسک الأرض و لو أراد أن يمسكها من غير جبال لفعل إلا أنه أمسكها بالرواسى لأن ذلک أقرب إلى أفهام الناس و أدعى لهم إلى الاستدلال و النظر ﴿ وَ

أَنْهاراً ﴾ أى و شق فيها أنهارا تجرى فيها المياه و لولا الأنهار لضاع أكثر المياه و لما أمكن الشرب و السقى ﴿ وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ أى و جعل فى الأرض من كل الثمرات لمأكولهم و مطعومهم صنفين أسود و أبيض و حلوا و حامضا و صيفيا و شتويا و رطبا و يابسا عن ابن عباس و قيل الزوج قد يكون واحدا و قد يكون اثنين يقال زوج نعل و زوج نعلين عن أبى عبيدة و إنما قال اثنين للتأكيد و الزوج فى الحيوانات عبارة عن الذكر و الأنثى و فى الثمار عبارة عن لونين و قال الماوردى: واحد الزوجين ذكر و أنثى كفحول النخل و إناثها و كذلك كل جنس من النبات و إن خفى الزوج الآخر حلو و حامض أو عذب و مالح أو أبيض و أسود أو أحمر و أصفر فإن كل جنس من النبات ذو نوعين فصارت كل ثمرة زوجين هما أربعة أنواع ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ ﴾ أى يلبس ظلمة الليل ضياء النهار عن الحسن و قيل يدخل الليل فى النهار و النهار فى الليل عن ابن عباس و قيل معناه يأتى بالليل ليذهب بضياء النهار و يستره ليسكن الحيوانات فيه و يأتى بضياء النهار ليمحو ظلام الليل و ينصرف الناس فيه لمعايشهم ﴿ إِنَّ فِي ذلِكَ ﴾ أى فيما سبق ذكره ﴿ لَآياتٍ ﴾ أى لدلالات واضحات على وحدانية الله تعالى ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيها فيستدلون منها على أن لهم صانعا ﴿ وَ فِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ ﴾ أى أبعاض متقاربات مختلفات فى التفاضل منها جبل صلب و لا ينبت شيئا و منها سهل حر ينبته و منها سبخة لا تنبت عن ابن عباس و مجاهد و الضحاك بين الله سبحانه باختلاف هذه الأرضين مع تجاورها و تقارب بعضها من بعض فى الهيأة و المنظر أنه قادر على كل شىء من الأصناف المختلفة و المؤتلفة و قيل إنها متجاورات بعضها عامر و بعضها غير عامر عن الزجاج ﴿ وَ جَنَّاتٌ ﴾ أى بساتين ﴿ مِنْ أَعْنابٍ وَ زَرْعٌ وَ نَخِيلٌ صِنْوانٌ ﴾ أى نخلات من أصل واحد ﴿ وَ غَيْرُ صِنْوانٍ ﴾ أى نخلات من أصول شتى عن ابن عباس و مجاهد و قتادة و الصنو الأصل يقال هذا صنوه أى أصله عن ابن الأنبارى و قيل إن الصنوان النخلة تكون حولها النخلات و غير صنوان النخل المتفرق عن البراء بن عازب و سعيد بن جبير و قيل الصنو المثل و الصنوان الأمثال و منها قولهﷺ عم الرجل صنو أبيه عن الجبائى ﴿ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ ﴾ أى يسقى ما ذكرناه من القطع المتجاورة و الجنات و النخيل المختلفة بماء الأنهار أو بماء السماء «و يفضل بعضها على بعض في الأكل» أى و يفضل الله و من قرأ بالنون فالمعنى نفضل نحن بعضها على بعض فى الطعم و اللون و الطبع مع أن البئر واحدة و الشرب واحد و الجنس واحد حتى يكون بعضها حامضا و بعضها حلوا و بعضها مرا فلو كانت بالطبع لما اختلف ألوانها و طعومها مع كون الأرض و الماء و الهواء واحدا و فى هذا أوضح دلالة على أن لهذه الأشياء صانعا قادرا أحدثها و أبدعها و

دبرها على ما تقتضيه حكمته و الأكل الثمر الذى يؤكل ﴿ إِنَّ فِي ذٰلِكَ ﴾ أى فى اختلاف ألوانها و طعومها عن ابن عباس و قيل إن فيما تقدم ذكره ﴿ لَآياتٍ ﴾ أى حججا و دلالات ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ دلائل الله تعالى و يتفكرون فيها و يستدلون بها و روى عن جابر قال: سمعت النبى ﷺ يقول لعلى عليه السلام الناس من شجر شتى و أنا و أنت من شجرة واحدة ثم قرأ ﴿ وَ فِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَ جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ ﴾ الآية.

***

وَ إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَ إِذا كُنَّا تُراباً أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَ أُولٰئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَ أُولٰئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ ﴿٥﴾ وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلىٰ ظُلْمِهِمْ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ ﴿٦﴾ وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ ﴿٧﴾

لما تقدم ذكر الأدلة على أنه سبحانه قادر على الإنشاء و الإعادة عقبه بالتعجب من تكذيبهم بالبعث و النشور فقال ﴿ وَ إِنْ تَعْجَبْ ﴾ يا محمد من قول هؤلاء الكفار فى إنكارهم البعث مع إقرارهم بابتداء خلق الخلق فقد وضعت التعجب موضعه لأن هذا قول عجب و معناه عجب للمخلوقين فإن معنى العجب فى صفات الله لا يجوز لأن العجب أن يشتبه عليه سر أمره فيستطرفه ﴿ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ أى فقولهم عجب ﴿ أَ إِذا كُنَّا تُراباً أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أى أ نبعث و نعاد بعد ما صرنا ترابا هذا مما لا يمكن و هذا منهم نهاية فى الأعجوبة فإن الماء إذا حصل فى الرحم استحال علقة ثم مضغة ثم لحما فإذا مات و دفن استحال ترابا فإذا جاز أن يتعلق الإنشاء بالاستحالة الأولى فلم لا يجوز تعلقه بالاستحالة الثانية و سمى الله تعالى الإعادة خلقا جديدا و اختلف المتكلمون فيما يصح عليه الإعادة فقال بعضهم كلما يكون مقدورا للقديم سبحانه خاصة و يصح عليه البقاء يصح عليه الإعادة و لا يصح الإعادة على ما لا يقدر على جنسه غيره تعالى و هذا قول أبى على الجبائى و قال آخرون كلما كان مقدورا له و هو مما يبقى يصح عليه الإعادة و هو قول أبى هاشم و من تابعه فعلى هذا يصح إعادة أجزاء الحياة ثم اختلفوا فيما يجب إعادته من الحى فقال أبو القاسم البلخى يعاد جميع أجزاء الشخص و قال أبو هاشم يعاد الأجزاء التى بها يتميز الحى من غيره و يعاد التأليف ثم رجع عن ذلك و قال تعاد الحياة مع البنية و قال القاضى أبو الحسن تعاد البنية و ما عدا ذلك

يجوز فيه التبديل و هذا هو الأصح ﴿ أُولئِكَ ﴾ المنكرون للبعث ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ أى جحدوا قدرة الله تعالى على البعث ﴿ وَ أُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ ﴾ فى الآخرة و قيل أراد به أغلال الكفر أى كفرهم أغلال فى أعناقهم ﴿ وَ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ ﴾ مضى تفسيره ﴿ وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ ﴾ أى يستعجلك يا محمد هؤلاء المشركون ﴿ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ أى بالعذاب قبل الرحمة عن ابن عباس و مجاهد أى بالعقاب الذى توعدوا به على التكذيب قبل الثواب الذى وعدوا به على الإيمان و ذلک حين قالوا ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ ﴾ و قيل يستعجلونک بالعذاب الذى توعدهم به قبل الإحسان بالإنظار فإن إنظار من وجب عليه العقاب إحسان إليه كإنذار من وجب عليه الدين و سماها سيئة لأنها جزاء السيئة ﴿ وَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ ﴾ أى مضت من قبلهم ﴿ الْمَثُلاتُ ﴾ أى العقوبات التى يقع بها الاعتبار و هو ما حل بهم من المسخ و الخسف و الغرق و قد سلک هؤلاء طريقتهم فكيف يتجاسرون على استعجالها و قيل هى العقوبة الفاضحة التى تسير بها الأمثال و تقديره و قد خلت المثلات بأقوام أو خلا أصحاب المثلات فحذف المضاف ﴿ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ ﴾ قال المرتضى (ره) فى هذه الآية دلالة على جواز المغفرة للمذنبين من أهل القبلة لأنه سبحانه دلنا على أنه يغفر لهم مع كونهم ظالمين لأن قوله ﴿ عَلى ظُلْمِهِمْ ﴾ إشارة إلى الحال التى يكونون عليها ظالمين و يجرى ذلک مجرى قول القائل أنا أود فلانا على غدره و أصله على هجره ﴿ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ ﴾ لمن استحقه و روى عن سعيد بن المسيب قال لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ لولا عفو الله و تجاوزه ما هنا أحدا العيش و لولا وعيد الله و عقابه لا تكل كل واحد و تلا مطرف يوما هذه الآية فقال لو يعلم الناس قدر رحمة الله و عفو الله و تجاوز الله لقرت أعينهم و لو يعلم الناس قدر عذاب الله و بأس الله و نكال الله و نقمة الله ما رقا لهم دمع و لا قرت أعينهم بشىء ﴿ وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ مثل الناقة و العصا عن ابن عباس و قال الزجاج طلبوا غير الآيات التى أتى بها فالتمسوا مثل آيات موسى و عيسى فأعلم الله أن لكل قوم هاد و المعنى أنه سبحانه بين سوء طريقتهم فى اقتراح الآيات كما فى قوله ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً ﴾ إلى قوله ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَ الْمَلائِكَةِ قَبِيلًا ﴾ و كما قالوا اجعل الصفا لنا ذهبا حتى نأخذ منه ما نشاء و إنما لم يظهر الله تعالى تلک الآيات لأنه لو أجاب أولئک لاقترح قوم آخرون آية أخرى و كذلک كل كافر فكان يؤدى إلى غير نهاية ﴿ إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ ﴾ فيه أقوال:

(أحدها) أن معناه إنما أنت منذر أى مخوف و هاد لكل قوم و ليس إليک إنزال الآيات عن الحسن و أبى الضحى و عكرمة و الجبائى و على هذا فيكون أنت مبتدأ و منذر خبره و هاد عطف على منذر و فصل بين الواو و المعطوف بالظرف؛

(و الثانى) أن المنذر هو محمد و الهادى هو الله تعالى عن ابن عباس و سعيد بن جبير و الضحاک و مجاهد؛

(و الثالث) أن معناه إنما أنت منذر يا محمد و لكل قوم هاد نبى يهديهم و داع يرشدهم عن ابن عباس فى رواية أخرى و قتادة و الزجاج و ابن زيد؛

(و الرابع) أن المراد بالهادى كل داع إلى الحق و فى رواية أخرى عن ابن عباس قال لما نزلت الآية قال رسول الله أنا المنذر و على الهادى من بعدى يا على بک يهتدى المهتدون و روى الحاكم أبو القاسم الحسكانى فى كتاب شواهد التنزيل بالإسناد عن إبراهيم بن الحكم بن ظهير عن أبيه عن حكم بن جبير عن أبى بردة الأسلمى قال دعا رسول الله ﷺ بالطهور و عنده على بن أبى طالب فأخذ رسول الله بيد على بعد ما تطهر فألزمها بصدره ثم قال إنما أنت منذر ثم ردها إلى صدر على ثم قال و لكل قوم هاد ثم قال إنک منارة الأنام و غاية الهدى و أمير القرى و أشهد على ذلک أنک كذلک و على هذه الأقوال الثلاثة يكون هاد مبتدأ و لكل قوم خبره على قول سيبويه و يكون مرتفعا بالظرف على قول الأخفش.

***

اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَ ما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَ ما تَزْدادُ وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ ﴿٨﴾ عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ ﴿٩﴾ سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَ سارِبٌ بِالنَّهارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَ إِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ ﴿١١﴾

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى ﴾ أى يعلم ما فى بطن كل حامل من ذكر أو أنثى تام أو غير تام و يعلم لونه و صفاته ﴿ وَ ما تَغِيضُ الْأَرْحامُ ﴾ أى يعلم الوقت الذى تنقصه الأرحام من المدة التى هى تسعة أشهر ﴿ وَ ما تَزْدادُ ﴾ على ذلک عن أكثر المفسرين و قال الضحاک الغيض النقصان من الأجل و الزيادة ما يزداد على الأجل و ذلک أن النساء لا يلدن لأجل واحد و قيل يعنى بقوله ﴿ ما تَغِيضُ

الْأَرْحامُ ﴾ الولد الذى تأتى به المرأة لأقل من ستة أشهر و ما تزداد الولد الذى تأتى به المرأة لأقصى مدة الحمل عن الحسن و قيل معناه ما تنقص الأرحام من دم الحيض و هو انقطاع الحيض و ما تزداد بدم النفاس بعد الوضع عن ابن عباس بخلاف و ابن زيد ﴿ وَ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ أى و كل شىء من الرزق أو الأجل أو ما سبق ذكره من الحمل ﴿ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ ﴾ أى بقدر واحد لا يجاوزه و لا يقصر عنه على ما توجبه الحكمة ﴿ عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ ﴾ أى عالم بما غاب عن حس العباد و بما يشاهده العباد لا يغيب عنه شىء و قيل عالم بالمعدوم و الموجود و الغيب هو المعدوم و قيل عالم السر و العلانية عن الحسن و الأولى أن يحمل على العموم و يدخل فى هاتين الكلمتين كل معلوم نبه سبحانه بذلك على أنه عالم بجميع المعلومات الموجودات منها و المعدومات منها ﴿ الْكَبِيرُ ﴾ و هو السيد الملك القادر على جميع الأشياء و قيل هو الذى كل شىء دونه لكمال صفاته و لكونه عالما لذاته قادرا لذاته حيا لذاته و قيل هو الذى كبر عن شبه المخلوقين ﴿ الْمُتَعالِ ﴾ و هو الذى علا كل شىء بقدرته فلا يساويه قادر و قيل هو المنزه عما لا يجوز عليه فى ذاته و فعله و عما يقوله المشركون ﴿ سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾ معناه سواء عند الله و فى علمه من أسر القول فى نفسه و أخفاه و من أعلنه و أبداه و لم يضمره فى نفسه ﴿ وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَ سارِبٌ بِالنَّهارِ ﴾ أى و من هو مستتر متوار بالليل و من هو سالك فى سربه أى فى مذهبه ماض فى حوائجه بالنهار معناه أنه يرى ما أخفته ظلمة الليل كما يرى ما أظهره ضوء النهار بخلاف المخلوقين الذين يخفى عليهم الليل أحوال أهله و قال الحسن معناه و من هو مستتر بالليل و من هو مستتر بالنهار و صحح الزجاج هذا القول لأن العرب تقول انسرب الوحش إذا دخل فى كناسة ﴿ لَهُ مُعَقِّباتٌ ﴾ اختلف فى الضمير الذى فى له على وجوه (أحدها) أنه يعود إلى من فى قوله ﴿ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾ (و الآخر) أنه يعود إلى اسم الله تعالى و هو عالم الغيب و الشهادة (و ثالثها) أنه يعود إلى النبى صلى الله عليه و آله فى قوله ﴿ إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ ﴾ عن ابن زيد و اختلف فى المعقبات على أقوال:

(أحدها) أنها الملائكة يتعاقبون تعقب ملائكة الليل ملائكة النهار و ملائكة النهار ملائكة الليل و هم الحفظة يحفظون على العبد عمله عن الحسن و سعيد بن جبير و قتادة و مجاهد و الجبائى و قال الحسن هم أربعة أملاك يجتمعون عند صلاة الفجر و هو معنى قوله ﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً ﴾ و قد روى ذلك عن أئمتنا عليهم السلام أيضا؛

(و الثانى) أنهم ملائكة يحفظونه من المهالك حتى ينتهوا به إلى المقادير فيحيلون بينه و بين المقادير عن على عليه السلام و ابن عباس و قيل هم عشرة أملاك على كل آدمى يحفظونه (و الثالث) أنهم

الأمراء و الملوک فی الدنیا الذین یمنعون الناس عن المظالم و تکون لهم الأحراس و الشرط و المواکب یحفظونه عن عکرمة و الضحاک و روی أیضا عن ابن عباس و تقدیره و من هو سارب بالنهار له أحراس و أعوان قدر أنهم یحرسونه و لم یتجه إحراسه من الله ﴿ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ یَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أی یطوفون به کما یطوف الموکل بالحفظة و قیل یحفظون ما تقدم من عمله و ما تأخر إلی أن یموت فیکتبونه عن الحسن و قیل یحفظونه من وجوه المهالک و المعاطب و من الجن و الإنس و الهوام و قال ابن عباس یحفظونه مما لم یقدر نزوله فإذا جاء المقدر بطل الحفظ و قیل من أمر الله أی بأمر الله عن الحسن و مجاهد و الجبائی و روی ذلک عن ابن عباس و هذا کما یقال هذا الأمر بتدبیر فلان و من تدبیر فلان و قیل معناه یحفظونه عن خلق الله فتکون من بمعنی عن کما فی قوله ﴿ وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ أی عن خوف قال کعب: لولا أن الله وکل بکم ملائکة یذبون عنکم فی مطعمکم و مشربکم و عوراتکم لتخطفنکم الجن ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا یُغَیِّرُ ما بِقَوْمٍ ﴾ من النعمة و الحال الجمیلة ﴿ حَتَّی یُغَیِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ من الطاعة فیعصون ربهم و یظلم بعضهم بعضا قال ابن عباس إذا أنعم الله علی قوم فشکروها زادهم و إذا کفروها سلبهم إیاها و إلی هذا المعنی أشار أمیر المؤمنین علیه السلام بقوله إذا أقبلت علیکم أطراف النعم فلا تنفروا أقصاها بقلة الشکر ﴿ وَ إِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً ﴾ أی عذابا و إنما سماه سوءا لأنه یسوء ﴿ فَلا مَرَدَّ لَهُ ﴾ أی لا مدفع له و قیل معناه إذا أراد الله بقوم بلاء من مرض و سقم فلا مرد لبلائه ﴿ وَ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ ﴾ یلی أمرهم و یمنع العذاب عنهم.

النظم

اتصلت الآیة الأولی بقوله ﴿ وَ إِنْ تَعْجَبْ ﴾ الآیة فإنه احتجاج للبعث و المعنی أن من کان بهذه الصفة فی القدرة و العلم فإنه یقدر علی البعث و قیل إنها اتصلت بقوله ﴿ وَ یَسْتَعْجِلُونَکَ بِالسَّیِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ و قوله ﴿ لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ یعنی أن من یعلم غوامض الأمور فهو أعلم بالمصالح و لو علم الصلاح فی إنزال العذاب أو الآیة لفعل عن البلخی و أبی مسلم و قوله ﴿ لَهُ مُعَقِّباتٌ ﴾ یتصل بقوله ﴿ وَ سارِبٌ بِالنَّهارِ ﴾ عن الجبائی و قیل یتصل بقوله ﴿ عالِمُ الْغَیْبِ وَ الشَّهادَةِ ﴾ و ﴿ یَعْلَمُ ما تَحْمِلُ کُلُّ أُنْثی ﴾ أی کما یعلمهم جعل علیهم حفظة یحفظونهم و قیل یتصل بقوله ﴿ إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ ﴾ یعنی أنه علیه السلام محفوظ بالملائکة و اتصل قوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا یُغَیِّرُ ما بِقَوْمٍ ﴾ إلی آخره بقوله ﴿ وَ یَسْتَعْجِلُونَکَ بِالسَّیِّئَةِ ﴾ [بالعذاب] یعنی أنه لا ینزل العذاب إلا بمن یعلم من جهتهم التغیر حتی لو علم أن فیهم من یؤمن فی المستقبل أو یعقب مؤمنا لا ینزل العذاب و قیل بل

اتصلت بالسارب بمعنى أنه إذا أتى بالمعصية بطل به حفظه و حاق به عقابه و قيل بل هو على الإطلاق و العموم.

***

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ يُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ ﴿١٢﴾ وَ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَ الْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَ يُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ وَ هُمْ يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ وَ هُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ ﴿١٣﴾ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاَّ كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَ ما هُوَ بِبالِغِهِ وَ ما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ ﴿١٤﴾ وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً وَ ظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ ﴿١٥﴾

ثم أخبر سبحانه عن كمال قدرته فقال ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً ﴾ أى تخويفا و إطماعا فأقام الخوف و الطمع مقام التخويف و الإطماع و ذكر فيه وجوه (أحدها) أن المعنى خوفا من الصواعق التى يكون معها و طمعا فى الغيث الذى يزيل القحط عن الحسن و أبى مسلم (و الثانى) خوفا للمسافر من أن يضل الطريق فلا يمكنه المسير و طمعا للمقيم فى نمو الزرع و الخير الكثير عن قتادة و الضحاك و الجبائى (الثالث) خوفا لمن يخاف ضر المطر لأنه ليس كل بلد ينتفع فيه بالمطر و طمعا لمن يرجو الانتفاع به عن الزجاج ﴿ وَ يُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ ﴾ أى و يخلق السحاب الثقال بالماء يرفعها من الأرض فيجريها فى الجو ﴿ وَ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾ تسبيح الرعد دلالته على تنزيه الله تعالى و وجوب حمده فكأنه هو المسبح و قيل إن الرعد هو الملك الذى يسوق السحاب و يزجره بصوته و هو يسبح الله تعالى و يحمده و روى عن النبى ﷺ أنه قال إن ربكم سبحانه يقول لو أن عبادى أطاعونى لأسقيتهم المطر بالليل و أطلعت عليهم الشمس بالنهار و لم أسمعهم صوت الرعد و كان ﷺ إذا سمع صوت الرعد قال سبحان من يسبح الرعد بحمده و كان ابن عباس يقول سبحان الذى سبحت له و روى سالم بن عبد الله عن أبيه قال كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد و الصواعق قال اللهم لا تقتلنا بغضبك و لا تهلكنا بعذابك و عافنا قبل ذلك و قال ابن عباس من سمع صوت الرعد فقال سبحان الذى يسبح الرعد بحمده و الملائكة من خيفته و هو على كل شىء قدير فإن أصابته صاعقة فعلى ديته ﴿ وَ الْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ أى و يسبح الملائكة من خيفة الله تعالى و خشيته قال ابن عباس إنهم خائفون من الله تعالى ليس كخوف ابن آدم لا يعرف أحدهم من على يمينه و من على يساره و لا يشغله عن عبادة الله طعام و لا شراب و لا شىء ﴿ وَ يُرْسِلُ الصَّواعِقَ

فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ ﴾ و يصرفها عمن يشاء إلا أنه حذف و روى عن أبى جعفر الباقر عليه السلام أن الصواعق تصيب المسلم و غير المسلم و لا تصيب ذاكرا ﴿ وَ هُمْ يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ ﴾ يعنى أن هؤلاء الجهال مع مشاهدتهم لهذه الآيات يخاصمون أهل التوحيد و يحاولون فتلهم عن مذاهبهم بجدالهم لأن معنى الجدال فتل الخصم عن مذهبه بطريق الحجاج روى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أنه عنى بذلك أربد بن قيس أخا لبيد بن ربيعة العامرى لأمه و عامر بن طفيل و ذلك أنهما أتيا النبى صلى الله عليه و آله يجادلانه و يريدان الفتك به و كان عامر أوصى إلى أربد إذا رأيتنى أكلمه فدر من خلفه فاضربه بالسيف فجعل عامر يخاصم رسول الله صلى الله عليه و آله و يراجعه الكلام فدار أربد خلف رسول الله صلى الله عليه و آله ليضربه فاخترط من سيفه شبرا ثم حبسه الله عنه فلم يقدر على سله و جعل عامر يؤمى إليه فالتفت رسول الله صلى الله عليه و آله فرأى أربدا و ما يصنع بسيفه فقال اللهم اكفنيهما بما شئت فأرسل الله على أربد صاعقة فى يوم صاح صائف فأحرقته و ولى عامر هاربا و قال يا محمد دعوت ربک فقتل أربدا و الله لأملأنها عليک خيلا جردا و فتيانا مردا و لأربطن بكل نخلة فرسا فقال صلى الله عليه و آله الله يمنعک من ذلک فنزل بيت امرأة من سلول و خرج على ركبتيه فى الوقت غدة عظيمة فكان يقول غدة كغدة البعير و موت فى بيت سلولية حتى قتلته و فى ذلک يقول لبيد بن ربيعة يرثى أخاه أربدا:

أخشى على أربد الحتوف و لا ... أرهب نوء السماك و الأسد

فجعني البرق و الصواعق بالفارس ... يوم الكريهة النجد

﴿ وَ هُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ ﴾ أى شديد الأخذ عن على عليه السلام و قيل شديد القوة عن قتادة و مجاهد و قيل شديد النقمة عن الحسن و قيل شديد القدرة و العذاب عن الزجاج و قيل شديد الكيد للكفار عن الجبائى ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾ أى لله سبحانه دعوة الحق و اختلف فى معنى دعوة الحق على أقوال: (أحدها) أنها كلمة الإخلاص شهادة أن لا إله إلا الله عن ابن عباس و قتادة و ابن زيد (و الثانى) أن الله تعالى هو الحق فدعاؤه دعوة الحق و من دعاه دعا الحق عن الحسن (و الثالث) أنها الدعوة التى يدعى بها الله على إخلاص التوحيد عن الجبائى و المعنى أن من دعاه على جهة الإخلاص فهو يجيبه فله سبحانه من خلقه دعوة الحق ﴿ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى و الذين يدعوهم المشركون من دون الله لحاجاتهم من الأوثان و غيرها ﴿ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَ ما هُوَ بِبالِغِهِ ﴾ هذا مثل ضربه الله لكل من عبد غير الله و دعاءه رجاء أن ينفعه يقول إن مثله كمثل رجل بسط كفيه إلى الماء من مكان بعيد ليتناوله و يسكن به غلته و ذلک الماء لا يبلغ فاه لبعد المسافة بينهما فكذلک ما كان يعبده المشركون من الأصنام لا يصل نفعها إليهم و لا يستجيب دعاءهم

عن ابن عباس و قيل كباسط كفيه إلى الماء أى كالذى يدعو الماء بلسانه و يشير إليه بيده فلا يأتيه الماء عن مجاهد و قيل كالذى يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فمات قبل أن يبلغ الماء فاه عن الحسن و قيل إنه تمثيل العرب لمن يسعى فيما لا يدركه فيقول هو كالقابض على الماء عن أبى عبيدة و البلخى و أبى مسلم قال الشاعر:

فأصبحت مما كان بيني و بينها من الود مثل القابض الماء باليد

و قال الآخر:

فإني و إياكم و شوقا إليكم كقابض ماء لم تسعه أنامله

﴿ وَ ما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ ﴾ أى ليس دعاؤهم الأصنام من دون الله إلا فى ذهاب عن الحق و الصواب و قيل فى ضلال عن طريق الإجابة و النفع ثم بين سبحانه كمال قدرته و سعة مملكته فقال ﴿ وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ﴾ يعنى الملائكة و سائر المكلفين ﴿ طَوْعاً وَ كَرْهاً ﴾ اختلف فى معناه على قولين (أحدهما) أن معناه أنه يجب السجود لله تعالى إلا أن المؤمن يسجد له طوعا و الكافر يسجد له كرها بالسيف عن الحسن و قتادة و ابن زيد (و الثانى) أن المعنى و لله يخضع من فى السماوات و الأرض إلا أن المؤمن يخضع له طوعا و الكافر يخضع له كرها لأنه لا يمكنه أن يمتنع من الخضوع لله لما يحل به من الآلام و الأسقام عن الجبائى ﴿ وَ ظِلالُهُمْ ﴾ أى و يسجد ظلالهم لله ﴿ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ ﴾ أى العشيات قيل إن المراد بالظل الشخص فإن من يسجد يسجد ظله معه قال الحسن يسجد ظل الكافر و لا يسجد الكافر و معناه عند أهل التحقيق أنه يسجد شخصه دون قلبه لأنه لا يريد بسجوده عبادة ربه من حيث إنه يسجد للخوف و قيل إن الظلال على ظاهرها و المعنى فى سجودها تمايلها من جانب إلى جانب و انقيادها بالتسخير بالطول و القصر.

***

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾

لما بين سبحانه فى الآية الأولى أنه المستحق للعبادة و أن له من فى السماوات و الأرض عقبه بما يجرى مجرى الحجة على ذلك فقال ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار ﴿ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ﴾ أى من مدبرهما و مصرفهما على ما فيهما من البدائع فإذا استعجم عليهم الجواب و لا يمكنهم أن يقولوا الأصنام فـ﴿ قُلْ ﴾ أنت لهم رب السماوات و الأرض و ما بينهما من أنواع الحيوان

و النباتات و الجماد ﴿ اللَّهُ ﴾ فإذا أقروا بذلک ﴿ قُلْ ﴾ لهم على وجه التبكيت و التوبيخ لفعلهم ﴿ أَ فَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ﴾ توجهون عبادتكم إليهم فالصورة صورة الاستفهام و المراد به التقريع ثم بين أن هؤلاء الذين اتخذوهم من دونه أولياء ﴿ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَ لا ضَرًّا ﴾ و من لا يملک لنفسه ذلک فالأولى و الأحرى أن لا يملک لغيره و من كان كذلک فكيف يستحق العبادة و إذا قيل كيف يكون هو السائل و المجيب و الملزم بقوله ﴿ قُلْ أَ فَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ﴾ فالجواب أنه إذا كان القصد بالحجاج ما يبينه من بعد من بعد لم يمتنع ذلک فكأنه قال الله الخالق فلما ذا اتخذتم من دون الله أولياء لأن الأمر الظاهر الذى لا يجيب الخصم إلا به لا يمتنع أن يبادر السائل إلى ذكره ثم يورد الكلام عليه تفاديا من التطويل و يكون تقدير الكلام أ ليس الله رب السماوات و الأرض فلم اتخذتم من دونه أولياء ثم ضرب لهم سبحانه مثلا بعد إلزام الحجة فقال ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ ﴾ أى كما لا يستوى الأعمى و البصير كذلک لا يستوى المؤمن و الكافر لأن المؤمن يعمل على بصيرة و يعبد الله الذى يملک النفع و الضر و الكافر يعمل على عمى و يعبد من لا يملک النفع و الضر ثم زاد فى الإيضاح فقال ﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَ النُّورُ ﴾ أى هل يستوى الكفر و الإيمان أو الضلالة و الهدى أو الجهل و العلم ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ ﴾ أى هل جعل هؤلاء الكفار لله شركاء فى العبادة خلقوا أفعالا مثل خلق الله تعالى من الأجسام و الألوان و الطعوم و الأراييح و القدرة و الحياة و غير ذلک من الأفعال التى يختص سبحانه بالقدرة عليها ﴿ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ أى فاشتبه لذلک عليهم ما الذى خلق الله و ما الذى خلق الأوثان فظنوا أن الأوثان تستحق العبادة لأن أفعالها مثل أفعال الله فإذا لم يكن ذلک مشتبها إذ كان ذلک كله لله تعالى لم يبق شبهة أنه الإله لا يستحق العبادة سواه فـ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يستحق به العبادة من أصول النعم و فروعها ﴿ وَ هُوَ الْواحِدُ ﴾ و معناه أنه يستحق من الصفات ما لا يستحقه غيره فهو قديم لذاته قادر لذاته عالم لذاته حى لذاته غنى لا مثل له و لا شبه و قيل الواحد هو الذى لا يتجزأ و لا يتبعض و قيل هو الواحد فى الإلهية لا ثانى له فى القدم ﴿ الْقَهَّارُ ﴾ الذى يقهر كل قادر سواه و لا يمتنع عليه شىء و استدلت المجبرة بقوله الله تعالى خالق كل شىء على أن أفعال العباد مخلوقة لله لأن ظاهر العموم يقتضى دخول أفعال العباد فيه و بقوله ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ ﴾ قالوا لأنه أنكر أن يكون خالق خلق كخلقه و أجيب عن ذلک بأن الآية وردت حجة على الكفار إذ لو كان المراد ما قالوا لكان فيها لهم على الله لأنه إذا كان الخالق لعبادتهم الأصنام هو الله فلا يتوجه التوبيخ إلى الكفار ، لا يلحقهم اللوم بذلک بل يكون لهم أن يقولوا إنک خلقت فينا ذلک فلم توبخنا على فعل فعلته

فينا فيبطل حينئذ فائدة الآية و أيضا فإن أكثر أصحابنا لا يطلقون على غيره سبحانه أنه يخلق أصلا فضلا عن أن يقولوا إنه يخلق كخلق الله و لكن يقولون إن العباد يفعلون و يحدثون و معنى الخلق عندهم الاختراع و لا يقدر العباد عليه و من جوز منهم إطلاق لفظ الخلق فى أفعال العباد فإنه يقول إنه سبحانه إنما نفى أن يكون أحد يخلق مثل خلقه و نحن لا نقول ذلك لأن خلق الله اختراع و إبداع و أفعال غيره مفعولة فى محل القدرة عليها مباشرا أو متولدا فى الغير بسبب حال فى محل القدرة و لا يقدر على اختراع الأفعال فى الغير على وجه من الوجوه إلا الله سبحانه الذى أبدع السماوات و الأرض و ما فيهما و ينشئ الأجناس من الأعراض التى لا يقدر عليها غيره فكيف يشبه الخلق مع هذا التمييز الظاهر على أن عندهم كل حركة هى كسب للعبد و فعل لله تعالى و لا يتميز فقد حصل التشابه هنا و نحن نقول إن أحدنا يفعل بقدرة محدثة يفعلها الله تعالى فيه و الله يفعل لكونه قادرا لذاته فالفرق و التمييز ظاهر فعلمنا أن المراد بقوله ﴿ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ما قدمناه من أنه خالق كل شيء يستحق لخلقه العبادة.

***

أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ ﴿١٨﴾

ثم ضرب سبحانه مثلين للحق و الباطل (أحدهما) الماء و ما يعلوه من الزبد (و الآخر) ما توقد عليه النار من الذهب و الفضة و غيرهما و ما يعلوه من الزبد على ما رتبه فقال ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً ﴾ أى مطرا ﴿ فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها ﴾ يعنى فاحتمل الأنهار الماء كل نهر بقدره الصغير على قدر صغره و الكبير على قدر كبره فسالت كل نهر بقدره عن الحسن و قتادة و الجبائى و قيل بقدرها بما قدر لها من مائها عن الزجاج ﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً ﴾ أى طافيا عاليا فوق الماء شبه سبحانه الحق و الإسلام بالماء الصافى النافع للخلق و الباطل بالزبد الذاهب باطلا و قيل إنه مثل القرآن النازل من السماء ثم تحتمل القلوب حظها من اليقين و الشك على قدرها فالماء مثل اليقين و الزبد مثل الشك عن ابن عباس ثم ذكر المثل الآخر فقال ﴿ وَ مِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ﴾ و هو الذهب و

الفضة و الرصاص و غيره مما يذاب ﴿ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ ﴾ أى طلب زينة يتخذ منه كالذهب و الفضة ﴿ أَوْ مَتاعٍ ﴾ معناه أو ابتغاء متاع ينتفع به و هو مثل جواهر الأرض يتخذ منها الأوانى و غيرها ﴿ زَبَدٌ مِثْلُهُ ﴾ أى مثل زبد الماء فإن هذه الأشياء التى تستخرج من المعادن و توقد عليها النار ليتميز الخالص من الخبيث لها أيضا زبد و هو خبثها ﴿ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَ الْباطِلَ ﴾ أى مثل الحق و الباطل و ضرب المثل تسييره فى البلاد حتى يتمثل به فى الناس ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً ﴾ أى باطلا متفرقا بحيث لا ينتفع به ﴿ وَ أَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾ هو الماء الصافى و الأعيان التى ينتفع لها ﴿ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ فينتفع به الناس فمثل المؤمن و اعتقاده كمثل هذا الماء المنتفع به فى نبات الأرض و حياة كل شىء به و كمثل نفع الذهب و الفضة و سائر الأعيان المنتفع بها و مثل الكافر و كفره كمثل هذا الزبد الذى يذهب جفاء و كمثل خبث الحديد و ما تخرجه النار من وسخ الذهب و الفضة الذى لا ينتفع به ﴿ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ ﴾ للناس فى أمر دينهم قال قتادة هذه ثلاثة أمثال ضربها الله تعالى فى مثل واحد شبه نزول القرآن بالماء الذى ينزل من السماء و شبه القلوب بالأودية و الأنهار فمن استقصى فى تدبره و تفكر فى معانيه أخذ حظا عظيما منه كالنهر الكبير الذى يأخذ الماء الكثير و من رضى بها أداه إلى التصديق بالحق على الجملة كان أقل خطأ منه كالنهر الصغير فهذا مثل ثم شبه الخطوات و وساوس الشيطان بالزبد يعلو على الماء و ذلک من خبث التربة لا عين الماء كذلک ما يقع فى النفس من الشكوک فمن ذاتها لا من ذات الحق يقول فكما يذهب الزبد باطلا و يبقى صفوة الماء كذلک يذهب مخايل الشک هباء باطلا و يبقى الحق فهذا مثل ثان و المثل الثالث قوله ﴿ وَ مِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ﴾ إلى آخره فالكفر مثل هذا الخبث الذى لا ينتفع به و الإيمان مثل الماء الصافى الذى ينتفع به و تم الكلام عند قوله ﴿ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ ﴾ ثم استأنف بقوله ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى ﴾ عن الحسن و البلخى و قيل بل يتصل بما قبله لأن معناه أن الذى يبقى مثل الذين استجابوا لربهم و الذى يذهب جفاء مثل الذى لا يستجيب و المراد به للذين استجابوا دعوة الله و آمنوا به و أطاعوه الحسنى و هى الجنة عن الحسن و الجبائى و قيل معناه الخصلة الحسنى و الحالة الحسنى و هى صفة الثواب و الجنة أيضا عن أبى مسلم ﴿ وَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ ﴾ أى لله فلم يؤمنوا به ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ﴾ أى جعلوا ذلک فدية أنفسهم من العذاب لم يقبل ذلک منهم ﴿ أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ ﴾ قيل فيه أقوال:

(أحدها) أن سوء الحساب أخذهم بذنوبهم كلها من دون أن يغفر لهم شيء منها عن إبراهيم النخعي و يؤيد ذلک ما جاء في الحديث و من نوقش الحساب عذب فيكون سوء الحساب المناقشة؛

(و الثاني) هو أن يحاسبوا للتقريع و التوبيخ فإن الكافر يحاسب على هذا الوجه و المؤمن يحاسب ليسر بما أعد الله تعالى له عن الجبائي؛

(و الثالث) هو أن لا يقبل لهم حسنة و لا يغفر لهم سيئة عن الزجاج و روى ذلک عن أبي عبد الله عليه السلام؛

(و الرابع) أن سوء الحساب هو سوء الجزاء فسمي الجزاء حسابا لأن فيه إعطاء المستحق حقه ﴿ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي مصيرهم إلى جهنم ﴿ وَ بِئْسَ الْمِهادُ ﴾ أي و بئس ما مهدوا لأنفسهم و المهاد الفراش الذي يوطأ لصاحبه و تسمى النار مهادا لأنها موضع المهاد لهم.

***

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ لا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ ﴿٢٠﴾ وَ الَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَ يَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ ﴿٢١﴾ وَ الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ الْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ ﴿٢٣﴾ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾

ثم بين سبحانه الفرق بين المؤمن و الكافر فقال ﴿ أَ فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى ﴾ عنه أخرج الكلام مخرج الاستفهام و المراد به الإنكار أي لا يكونان مستويين فإن الفرق بينهما هو الفرق بين الأعمى و البصير لأن المؤمن يبصر ما فيه رشده فيتبعه و الكافر يتعامى عن الحق فيتبع ما فيه هلاكه ﴿ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ ﴾ أي إنما يتفكر فيه و يستدل به ذوو العقول و المعرفة قال علي بن عيسى و في هذا حث على طلب العلم و إلزام له لأنه إذا كانت حال الجاهل كحال الأعمى و حال العالم كحال البصير و أمكن هذا الأعمى أن يستفيد بصرا فما الذي يقعده عن طلب العلم الذي يخرجه عن حال العمى بالجهل إلى حال البصير ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ لا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ ﴾ أي يؤدون ما عهد الله إليه و ألزمهم إياه عقلا و سمعا فالعهد العقلي ما جعله في عقولهم من اقتضاء صحة أمور و فساد أمور أخر كاقتضاء الفعل للفاعل و إن الصنائع لا بد أن

ترجع إلى صانع غير مصنوع و إلا أدى إلى ما لا يتناهى و إن للعالم مدبرا لا يشبهه و العهد الشرعى ما أخذه النبى صلى الله عليه و آله على المؤمنين من الميثاق المؤكد باليمين أن يطيعوه و لا يعصوه و لا يرجعوا عما التزموه من أوامر شرعه و نواهيه و إنما كرر ذكر الميثاق و إن دخل جميع الأوامر و النواهى فى لفظ العهد لئلا يظن ظان أن ذلک خاص فيما بين العبد و ربه فأخبر أن ما بينه و بين العباد من المواثيق كذلک فى الوجوب و اللزوم و قيل إنه كرره تأكيدا ﴿ وَ الَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ قيل المراد به الإيمان بجميع الرسل و الكتب كما فى قوله ﴿ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ و قيل هو صلة محمد و موازرته و معاونته و الجهاد معه عن الحسن و قيل هو صلة الرحم عن ابن عباس و روى أصحابنا أن أبا عبدالله عليه السلام لما حضرته الوفاة قال أعطوا الحسن بن الحسين بن على بن الحسين و هو الأفطس سبعين دينارا فقالت له أم ولد له أ تعطى رجلا حمل عليک بالشفرة فقال لها ويحک أ ما تقرئين قوله تعالى ﴿ وَ الَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ الآية و قيل هو ما يلزم من صلة المؤمنين بأن يتولوهم و ينصروهم و يذبوا عنهم و يدخل فيه صلة الرحم و غير ذلک عن الجبائى و أبى مسلم و روى جابر عن أبى جعفر عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه و آله بر الوالدين و صلة الرحم يهونان الحساب ثم تلا هذه الآية روى محمد بن الفضيل عن موسى بن جعفر الكاظم عليهما السلام فى هذه الآية قال صلة آل محمد صلى الله عليه و آله معلقة بالعرش تقول اللهم صل من وصلنى و اقطع من قطعنى و هى تجرى فى كل رحم و روى الوليد بن أبان عن أبى الحسن الرضا عليه السلام قال قلت له هل على الرجل فى ماله سوى الزكاة قال نعم أين ما قال الله ﴿ وَ الَّذِينَ يَصِلُونَ ﴾ الآية ﴿ وَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ أى و يخافون عقاب ربهم فى قطعها ﴿ وَ يَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ ﴾ قد بينا ما قيل فيه و روى هشام بن سالم عن أبى عبد الله عليه السلام قال سوء الحساب أن يحسب عليهم السيئات و لا يحسب لهم الحسنات و هو الاستعصاء و روى حماد بن عثمان عن أبى عبد الله عليه السلام أنه قال لرجل يا فلأن ما لک و لأخيک قلت جعلت فداک لى عليه شىء فاستقصيت حقى عنه قال أبو عبد الله عليه السلام أخبرنى عن قول الله سبحانه ﴿ وَ يَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ ﴾ أ تراهم خافوا أن يجور عليهم أو يظلمهم لا و الله و لكن خافوا الاستقصاء و المداقة ﴿ وَ الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ أى الذين صبروا على القيام بما أوجبه الله عليهم و على بلاء الله من الأمراض و العقوبة و غير ذلک و عن معاصى الله سبحانه لطلب ثواب الله تعالى لأن ابتغاء وجه الله هو ابتغاء الله و ابتغاء الله يكون ابتغاء ثوابه تقول العرب فى تعظيم الشىء هذا وجه الرأى و هذا نفس الرأى للرأى المعظم فكذلک وجه ربهم هو نفسه المعظم فلا شىء أعظم منه و لا شىء يساويه فى العظم و قيل إن ذكر الوجه هنا عبارة عن الإخلاص و ترک الرياء ﴿ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ ﴾

أى أدوها بحدودها و قيل داموا على فعلها ﴿ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً ﴾ أى ظاهرا و باطنا ﴿ وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ أى يدفعون بفعل الطاعة المعصية قال ابن عباس يدفعون بالعمل الصالح السيئ من العمل كما روى عن النبىﷺ أنه قال لمعاذ بن جبل إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها و قيل معناه يدفعون إساءة من أساء إليهم بالإحسان و العفو و لا يكافئون كقوله سبحانه ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ﴾ عن قتادة و ابن زيد و القتيبى قال الحسن إذا حرموا أعطوا و إذا ظلموا عفوا و إذا قطعوا وصلوا و قيل معناه يدفعون بالتوبة معرة الذنب عن ابن كيسان ﴿ أُولئِكَ ﴾ يعنى أن هؤلاء الذين هذه صفاتهم ﴿ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ أى ثواب الجنة فالدار الجنة و ثوابها عقباها التى هى العاقبة المحمودة عن ابن عباس و الحسن ثم وصف الدار فقال ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ أى بساتين إقامة تدوم و لا تفنى و قيل هى الدرجة العليا و سكانها الشهداء و الصديقون عن ابن عباس و قيل هى مدينة فى الجنة فيها الأنبياء و الأئمة و الشهداء عن الضحاك و قيل قصر من ذهب لا يدخله إلا نبى أو صديق أو شهيد أو حاكم عدل عن الحسن و عبد الله بن عمر ثم بين سبحانه ما يتكامل به سرورهم من اجتماع قومهم معهم فقال ﴿ يَدْخُلُونَها وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ أى أولادهم يعنى من آمن منهم و صدق بما صدقوا به و ذلک أن الله سبحانه جعل من ثواب المطيع سروره بما يراه فى أهله من إلحاقهم به فى الجنة كرامة له كما قال ألحقنا بهم ذريتهم عن ابن عباس و مجاهد ﴿ وَ الْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ ﴾ من أبواب الجنة الثمانية و قيل من كل باب من أبواب البر كالصلاة و الزكاة و الصوم و قيل من أبواب قصورهم و بساتينهم بالتحية من الله سبحانه و التحف و الهدايا عن ابن عباس و يقولون ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ ﴾ و القول محذوف لدلالة الكلام عليه و السلام و التحية و البشارة منهم بالسلامة و الكرامة و انتفاء كل أمر تشوبه مضرة أى سلمكم الله من الأهوال و المكاره بصبركم على شدائد الدنيا و محنها فى طاعة الله تعالى ﴿ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ أى نعم عاقبة الدار ما أنتم فيه من الكرامة.

***

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ

اللهِ أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ وَ حُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾

لما ذكر سبحانه الذين يوفون بعهد الله و وصفهم بالصفات التى يستحقون بها الجنة عقبه بذكر من هو على خلاف حالهم فقال ﴿ وَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ قد ذكرنا معنى عهد الله و ميثاقه و صلة ما أمر الله به أن يوصل ﴿ وَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ بالدعاء إلى غير الله عن ابن عباس و قيل بقتال النبىﷺ و المؤمنين عن الحسن و قيل بالعمل فيها بمعاصى الله و الظلم لعباده و إخراب بلاده و هذا أعم ﴿ أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ و هى الإبعاد من رحمة الله و التبعيد من جنته ﴿ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ أى عذاب النار و الخلود فيها ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ ﴾ أى يوسع الرزق على من يشاء من عباده بحسب ما يعلم من المصلحة و يضيقه على آخرين إذا كانت المصلحة فى التضييق ﴿ وَ فَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا ﴾ أى فرحوا بما أوتوا من حطام الدنيا فرح البطر و نسوا فناءه و بقاء أمر الآخرة و تقديره و فرح الذين بسط لهم فى الرزق فى الحياة الدنيا ﴿ وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ ﴾ أى ليست هذه الحياة الدنيا بالإضافة إلى الحياة الآخرة إلا قليل ذاهب لأن هذه فانية و تلك دائمة باقية عن مجاهد و قيل إنه مذكور على وجه التعجب أى عجبا لهم أن فرحوا بالدنيا الفانية و تركوا النعيم الدائم و الدنيا فى جنب الآخرة متاع لا خطر له و لا بقاء له مثل القدح و القصعة و القدر يتمتع به زمانا ثم ينكسر عن ابن عباس ﴿ وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ أى هلا أنزل على محمد معجزة من ربه يقترحها و يجوز أنهم لم يتفكروا فى الآيات المنزلة فاعتقدوا أنه لم ينزل عليه آية و لم يعتدوا بتلك الآيات فقالوا هذا القول جهلا منهم بها ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ ﴾ عن طريق الجنة بسوء أفعاله و عظم معاصيه و قد مضى القول فى وجوه الإضلال و الهدى فلا معنى لإعادته ﴿ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ ﴾ أى رجع إليه بالطاعة ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ معناه الذين اعترفوا بتوحيد الله على جميع صفاته و نبوة نبيه و قبول ما جاء به من عند الله و تسكن قلوبهم بذكر الله و تأنس إليه و الذكر حصول المعنى للنفس و قد يسمى العلم ذكرا و القول الذى فيه المعنى الحاضر للنفس أيضا يسمى ذكرا و قد وصف الله المؤمن هاهنا بأنه يطمئن قلبه إلى ذكر الله و وصفه فى موضع آخر بأنه إذا ذكر الله وجل قلبه لأن المراد بالأول أنه يذكر ثوابه و إنعامه و آلاءه التى لا تحصى و أياديه التى لا تجازى فيسكن إليه و بالثانى أنه يذكر عقابه و انتقامه فيخافه و يوجل قلبه ﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ و هذا حث للعباد على تسكين القلب إلى ما وعد الله به من النعيم و

الثواب و الطمأنينة إليه فإن وعده سبحانه صادق و لا شيء تطمئن النفس إليه أبلغ من الوعد الصادق و هو اعتراض وقع بين الكلامين إذا كان قوله ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ فى موضع رفع بالابتداء و يكون قوله ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ ﴾ بدلا منه و قوله ﴿ طُوبى لَهُمْ وَ حُسْنُ مَآبٍ ﴾ جملة فى موضع الرفع بأنه خبر المبتدأ و إذا كان الذين آمنوا الأول فى موضع نصب على ما تقدم ذكره فيكون ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ ﴾ مبتدأ مستأنفا و طوبى لهم خبره و معناه أن الذين يؤمنون بالله و يعلمون ما يجب عليهم من الطاعات ﴿ طُوبى لَهُمْ ﴾ و فيه أقوال: (أحدها) أن معناه فرح لهم و قرة عين عن ابن عباس (و الثانى) غبطة لهم عن الضحاك (و الثالث) خير لهم و كرامة عن إبراهيم النخعى (و الرابع) الجنة لهم عن مجاهد (و الخامس) معناه العيش المطيب لهم عن الزجاج و الحال المستطابة لهم عن ابن الأنبارى لأنه فعلى من الطيب و قيل أطيب الأشياء لهم و هو الجنة عن الجبائى (و السادس) هنيئا بطيب العيش لهم (السابع) حسنى لهم عن قتادة (الثامن) نعم ما لهم عن عكرمة (التاسع) طوبى لهم دوام الخير لهم (العاشر) أن طوبى شجرة فى الجنة أصلها فى دار النبى صلى الله عليه و آله و فى دار كل مؤمن منها غصن عن عبيد بن عمير و وهب و أبى هريرة و شهر بن حوشب و رواه عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا و هو المروى عن أبى جعفر عليه السلام قال لو أن راكبا مجدا سار فى ظلها مائة عام ما خرج منها و لو أن غرابا طار من أصلها ما بلغ أعلاها حتى يبيض هرما ألا فى هذا فارغبوا إن المؤمن نفسه منه فى شغل و الناس منه فى راحة إذا جن عليه الليل فرش وجهه و سجد لله يناجى الذى خلقه فى فكاك رقبته ألا فكهذا فكونوا و روى على بن إبراهيم عن أبيه عن الحسن بن محبوب عن على بن رئاب عن أبى عبيدة الحذاء عن أبى عبد الله عليه السلام كان رسول الله صلى الله عليه و آله يكثر تقبيل فاطمة عليها السلام فأنكرت عليه بعض نسائه ذلک فقال صلى الله عليه و آله إنه لما أسرى بى إلى السماء دخلت الجنة و أدنانى جبرئيل عليه السلام من شجرة طوبى و ناولنى منها تفاحة فأكلتها فحول الله ذلک فى ظهرى ماء فهبطت إلى الأرض و واقعت خديجة فحملت بفاطمة فكلما اشتقت إلى الجنة قبلتها و ما قبلتها إلا وجدت رائحة شجرة طوبى فهى حوراء إنسية و روى الثعلبى بإسناده عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال طوبى شجرة أصلها فى دار على عليه السلام فى الجنة و فى دار كل مؤمن منها غصن و رواه أبو بصير عن أبى عبد الله عليه السلام و روى الحاكم أبو القاسم الحسكانى بإسناده عن موسى بن جعفر عليهما السلام عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال سئل رسول الله صلى الله عليه و آله عن طوبى قال شجرة أصلها فى دارى و فرعها على أهل الجنة ثم سئل عنها مرة أخرى فقال فى دار على عليه السلام فقيل

فى ذلک فقال إن دارى و دار على فى الجنة بمكان واحد ﴿ وَ حُسْنُ مَآبٍ ﴾ أى و لهم حسن مآب أى مرجع.

النظم

وجه اتصال قوله ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ ﴾ الآية بما قبله أنه بين أن نقضهم للعهد إنما كان لحب الرئاسة و المنافسة فى الدنيا و زهدهم فى المنافسة و أخبر بأنه يبسط الرزق لمن يرى صلاحه فيه و يرزق مقدار الكفاية من علم أن صلاحه فيه ثم لما ذكر سبحانه سوء عاقبة الكفار عقب ذلک بذكر ما اقترحوه من الآيات و ترک تفكرهم فيما أنزل من الآيات الخارقة للعادات فقال ﴿ وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ و لما استعجلوا العذاب بين سبحانه أنه يضل من يشاء أى يهلک من يشاء معجلا و يؤخر عذاب من يشاء عن أبى مسلم قال و المراد بقوله ﴿ آيَةٌ ﴾ آيات العذاب و قيل إنهم لما اقترحوا الآيات بين أنهم إنما لم يجابوا إلى ذلک لأن فى المعلوم أنهم لا يؤمنون و أنه يهلكهم.

***

كَذٰلِكَ أَرْسَلْنٰاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ مَتابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتىٰ بَلْ لِلّٰهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَ فَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللّٰهُ لَهَدَى النّٰاسَ جَمِيعاً وَ لا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ حَتّٰى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ ﴿٣١﴾

لما ذكر سبحانه النعمة على من تقدم ذكره بالثواب و حسن المآب عقبه بذكر النعمة على من أرسل إليه النبى ﷺ فقال ﴿ كَذٰلِكَ أَرْسَلْناكَ ﴾ أى كما أنعمنا على المذكورين بالثواب فى الجنة أنعمنا على المرسل إليهم بإرسالک و قيل إن معنى التشبيه أنا كما أرسلنا الأنبياء فى الأمم قبلک أرسلناک ﴿ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ ﴾ أى فى جماعة قد مضت من قبلها قرون و جماعات ﴿ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ﴾ بين الغرض فى إرساله و هو أن يقرأ عليهم القرآن ليتدبروا آياته و يتعظوا بها ﴿ وَ هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمٰنِ ﴾ أى و قريش يكفرون بالرحمن أى و يقولون قد عرفنا الله و لا ندرى ما الرحمن كما أخبر عنهم بأنهم قالوا و ما الرحمن أ نسجد لما تأمرنا عن الحسن و قتادة و قيل معناه أنهم يجحدون بالوحدانية ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ هُوَ رَبِّي ﴾ أى الرحمن الذى أنكرتموه ربى أى خالقى

و مدبری ﴿ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أی إليه فوضت أمری متمسكا بطاعته راضيا بحكمه ﴿ وَ إِلَيْهِ مَتابِ ﴾ أی مرجعی و قيل معناه إلى الرحمن توبتی ﴿ وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ ﴾ أی تجعل به الجبال سائرة فأذهبت من مواضعها و قلعت من أماكنها ﴿ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ ﴾ أی شققت فجعلت أنهارا و عيونا ﴿ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى ﴾ أی أحيی به الموتی حتی يعيشوا و يتكلموا و حذف جواب لو لأن فی الكلام دليلا عليه و التقدير لكان هذا القرآن لعظم محله و علو أمره و جلالة قدره قال الزجاج و الذی أتوهم و قد قاله بعضهم أن المعنی لو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتی لما آمنوا و دليله قوله ﴿ وَ لَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ ﴾ إلی قوله ﴿ ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ و حذف جواب لو يكثر فی الكلام قال امرؤ القيس:

فلو أنها نفس تموت سوية و لكنها نفس تساقط أنفسا

و هو آخر القصيدة و قال:

و جدك لو شیء أتانا رسوله سواك و لكن لم نجد لك مدفعا

﴿ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً ﴾ معناه أن جميع ما ذكر من تسيير الجبال و تقطيع الأرض و إحياء الموتی و كل تدبير يجری هذا المجری لله لأنه لا يملكه سواه و لا يقدر عليه غيره و لكنه لا يفعل لأن فيما أنزل من الآيات مقنعا و كفاية للمنصفين و الأمر ما يصح أن يؤمر به و ينهی عنه و هو عام و أصله الأمر نقيض النهی ﴿ أَ فَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أی أ فلم يعلموا و يتبينوا عن ابن عباس و الحسن و مجاهد و قتادة و سعيد بن جبير و أبی مسلم و قيل معناه أ فلم يعلم الذين آمنوا علما ييأسوا معه من أن يكون غير ما علموه عن الفراء و قيل معناه أ فلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الذين وصفهم الله عز و جل بأنهم لا يؤمنون عن الزجاج قال لأنه قال ﴿ أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ أی أن الله لو أراد أن يهدی الخلق كلهم إلی جنته لهداهم لكنه كلفهم لينالوا الثواب بطاعاتهم علی وجه الاستحقاق و قيل أراد به مشيئة الإلجاء أی لو أراد أن يلجئهم إلی الاهتداء لقدر علی ذلک لكنه ينافی التكليف و يبطل الغرض به ﴿ وَ لا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا ﴾ من كفرهم و أعمالهم الخبيثة ﴿ قارِعَةٌ ﴾ أی نازلة و داهية تقرعهم و مصيبة شديدة من الحرب و الجدب و القتل و الأسر عليهم علی جهة العقوبة للتنبيه و الزجر و قيل أراد بالقارعة سرايا النبیﷺ كان يبعثها إليهم و قيل أراد بذلک ما مر ذكره من حديث أربد و عامر ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ ﴾ و قيل إن التاء فی تحل للتأنيث و المعنی أو تحل تلک القارعة قريبا من دارهم فتجاورهم حتی يحصل لهم المخافة منه عن الحسن و قتادة و أبی مسلم و الجبائی و قيل إن التاء للخطاب و المعنی أ و تحل أنت يا محمد

بنفسک قریبا من دارهم ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴾ أی ما وعد الله من فتح مکة عن ابن عباس قال و هذه الآیة مدنیة و قیل حتی یأتی یوم القیامة عن الحسن ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ ﴾ ظاهر المعنی.

النظم

اتصلت الآية الأخيرة بقوله ﴿ وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ و التقدير أن مثل هذا القرآن أنزل عليهم و هم يطلبون آيات أخر عن الجبائى و قيل اتصلت بقوله ﴿ كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ ﴾ الآية لأن المفهوم من قوله ﴿ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ ﴾ أنه قرأ عليهم القرآن و أنهم كفروا به.

***

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ ﴿٣٤﴾

ثم عزى سبحانه نبيه ﷺ فقال ﴿ وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ كما استهزأ هؤلاء بك ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى فأمهلتهم و أطلت مدتهم ليتوبوا و لتتم عليهم الحجة ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ أى أهلكتهم و أنزلت عليهم عذابى ﴿ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ ﴾ أى فكيف حل عقابى بهم و هو إشارة إلى تفخيم ذلك العقاب و تعظيمه ثم عاد سبحانه إلى الحجاج مع الكفار ﴿ أَ فَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ ﴾ معناه أ فمن هو قائم بالتدبير على كل نفس و حافظ كل نفس أعمالها يجازيها و قيل أ فمن هو قائم عليها برزقها و حفظها و الدفع عنها كمن ليس بهذه الصفات من الأصنام التى لا تنفع و لا تضر و يدل على هذا المحذوف قوله ﴿ وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ ﴾ يعنى أن هؤلاء الكفار جعلوا لله شركاء فى العبادة من الأصنام التى لا تقدر على شىء مما ذكرنا ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ سَمُّوهُمْ ﴾ أى سموهم بما يستحقون من الصفات و إضافة الأفعال إليهم إن كانوا شركاء لله كما يوصف الله بالخالق و الرازق و المحيى و المميت و يعود المعنى إلى أن الصنم لو كان إلها لتصور منه أن يخلق الرزق فيحسن حينئذ أن يسمى بالخالق و الرازق و قيل سموهم بالأسماء التى هى صفاتهم ثم انظروا هل تدل صفاتهم على جواز عبادتهم و اتخاذهم آلهة و قيل معناه أنه ليس لهم اسم له مدخل فى استحقاق الإلهية و ذلك استحقار لهم و قيل سموهم ما ذا خلقوا و هل ضروا أو نفعوا و هو مثل قوله ﴿ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ عن الحسن ﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ ﴾ هذا استفهام منقطع مما قبله أى بل أ تخبرون الله بشريک له فى الأرض و هو لا يعلمه على معنى أنه ليس و لو كان لعلم ﴿ أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ أى أم تقولون مجازا من القول و باطلا لا حقيقة له عن مجاهد و قتادة و

الضحاک و علی هذا فالمعنی أنه کلام ظاهر لیس له فی الحقیقة باطن و معنی فهو کلام فقط و قیل أم بظاهر کتاب أنزل الله تعالی سمیتم الأصنام آلهة فبین أنه لیس هاهنا دلیل عقلی و لا سمعی یوجب استحقاق الأصنام الإلهیة عن الجبائی ثم بین سبحانه بطلان قولهم فقال ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ ﴾ أی دع ذکر ما کنا فیه زین الشیطان لهم الکفر لأن مکرهم بالرسول کفر منهم عن ابن عباس و قیل بل زین لهم الرؤساء و الغواة کذبهم و زورهم ﴿ وَ صُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أی و صدوا الناس عن الحق أو صدوا بأنفسهم عن الحق و عن دین الله ﴿ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ ﴾ سبق معناه فی مواضع ﴿ لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ﴾ بالقتل و السبی و الأسر و قیل بالمصائب و الأمراض ﴿ وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ﴾ أی أغلظ و أبلغ فی الشدة علی النفس لدوامه و خلوصه و کثرته ﴿ وَ ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ ﴾ أی ما لهم من دافع یدفع عنهم عذاب الله تعالی.

***

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أُكُلُها دائِمٌ وَظِلُّها تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ عُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾ وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا واقٍ ﴿٣٧﴾

لما تقدم ذکر ما أعد الله للکافرین عقبه سبحانه بذکر ما أعده للمؤمنین فقال ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ أی شبهها عن مقاتل و قیل صفتها و صورتها عن الحسن قال ابن قتیبة المثل الشبه فی أصل اللغة ثم قد یصیر بمعنی صورة الشیء و صفته یقال مثلت لک کذا أی صورته و وصفته و قیل إن مثل مقحم و التقدیر الجنة التی وعد المتقون ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أُكُلُها دائِمٌ ﴾ یعنی أن ثمارها لا تنقطع کثمار الدنیا و ظلها لا یزول و لا تنسخه الشمس عن الحسن و قیل معناه نعیمها لا ینقطع بموت و لا آفة عن ابن عباس و قیل لذتها فی الأفواه باقیة عن إبراهیم التیمی ﴿ وَ ظِلُّها ﴾ أیضا دائم لا یکون مرة شمسا و مرة ظلا کما یکون فی الدنیا ﴿ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ أی تلک الجنة عاقبة المتقین فالطریق إلیها التقوی ﴿ وَ عُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ ﴾ أی و عاقبة أمر الکفار النار و لما تقدم ذکر الوعد و الوعید أخبر سبحانه عن المتقین و الکافرین فقال ﴿ وَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ یرید أصحاب النبی ﷺ الذین آمنوا به و صدقوه أعطوا القرآن و فرحوا بإنزاله ﴿ وَ مِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ﴾ یعنی الیهود و النصاری و المجوس أنکروا بعض معانیه و

ما يخالف أحكامهم عن الحسن و قتادة و مجاهد و قيل الذين آتيناهم الكتاب هم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام و أصحابه فرحوا بالقرآن لأنهم يصدقون به و الأحزاب بقية أهل الكتاب و سائر المشركين عن ابن عباس قال لأن عبد الله بن سلام و أصحابه أساءهم قلة ذكر الرحمن فى القرآن مع كثرة ذكره فى التوراة فأنزل الله ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ ﴾ ففرحوا بذلک و كفر المشركون بالرحمن و قالوا ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة و يريد بالأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ بالمعاداة و من ينكر بعضه يعنى ذكر الرحمن و هو قوله ﴿ وَ هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ ﴾ ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَ لا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ أى أمرت أن أوجه عبادتى إلى الله و لا أشرک به فى عبادته أحدا ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُوا ﴾ يعنى إلى الله أو إلى الإقرار بتوحيده و صفاته و توجيه العبادة إليه وحده أدعو ﴿ وَ إِلَيْهِ مَآبِ ﴾ أى إليه مرجعى و مصيرى أى أرجع و أصير إلى حيث لا يملک الضر و النفع إلا هو وحده فإنه لا يملک يوم القيامة الأمر أحدا من عباده كما ملكهم فى الدنيا ﴿ وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا ﴾ أى كما أنزلنا الكتب إلى من تقدم من الأنبياء بلسانهم أنزلنا إليک حكمه عربية أى جارية على مذاهب العرب فى كلامهم يعنى القرآن فالحكم هاهنا بمعنى الحكمة كما فى قوله ﴿ وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ و قيل إنما سماه حكما لما فيه من الأحكام فى بيان الحلال و الحرام و سماه عربيا لأنه أتى به نبى عربى ﴿ وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ ﴾ خطاب للنبى ﷺ و المراد به الأمة أى لئن واقفت و طلبت أهواء الذين كفروا و الأهواء جمع الهوى و هو ميل الطباع إلى شىء بالشهوة ﴿ بَعْدَ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ بالله تعالى لأن ما آتيناک من الدلالات و المعجزات موجب للعلم الذى يزول معه الشبهات ﴿ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ أى ناصر يعينک عليه و يمنعک من عذابه ﴿ وَ لا واقٍ ﴾ يقيک منه ﴿ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ فى موضع رفع و من مزيدة.

***

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَذُرِّيَّةً وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسابُ ﴿٤٠﴾

﴿ وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ ﴾ يا محمد ﴿ وَ جَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَ ذُرِّيَّةً ﴾ أى نساء و أولادا أكثر من نسائک و أولادک و كان لسليمان عليه السلام ثلاث مائة امرأة مهيرة و سبعمائة سرية و لداود عليه السلام مائة امرأة عن ابن عباس أى فلا ينبغى أن يستنكر منک أن تتزوج و يولد لک و روى أن أبا عبد الله عليه السلام قرأ هذه الآية ثم أومأ إلى صدره فقال نحن و الله ذرية رسول الله ﷺ ﴿ وَ ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ

يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى لم يكن لرسول يرسله الله أن يجىء بآية و دلالة إلا بعد أن يأذن فى ذلک و يطلق له فيه ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ ﴾ ذكر فيه وجوه:

(أحدها) أن معناه لكل أجل مقدر كتاب أثبت فيه و لا تكون آية إلا بأجل قد قضاه الله فى كتاب على وجه ما يوجبه التدبير فالآية التى اقترحوها لها وقت أجله الله لا على شهواتهم و اقتراحاتهم عن البلخى؛

(و الثانى) لكل أمر قضاه الله كتاب كتبه فيه فهو عنده كأجل الحياة و الموت و غير ذلک عن أبى على الجبائى؛

(و الثالث) أنه من المقلوب و المعنى لكل كتاب ينزل من السماء أجل ينزل فيه عن ابن عباس و الضحاک و معناه لكل كتاب وقت يعمل به فللتوراة وقت و للإنجيل وقت و كذلک القرآن ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ ﴾ قيل فى المحو و الإثبات أقوال:

(أحدها) إن ذلک فى الأحكام من الناسخ و المنسوخ عن ابن عباس و قتادة و ابن زيد و ابن جريج و هو اختيار أبى على الفارسى؛

(و الثانى) أنه يمحو من كتاب الحفظة المباحات و ما لا جزاء فيه و يثبت ما فيه الجزاء من الطاعات و المعاصى عن الحسن و الكلبى و الضحاک عن ابن عباس و الجبائى؛

(و الثالث) أنه يمحو ما يشاء من ذنوب المؤمنين فضلا فيسقط عقابها و يثبت ذنوب من يريد عقابه عدلا عن سعيد بن جبير؛

(الرابع) أنه عام فى كل شىء فيمحو من الرزق و يزيد فيه و من الأجل و يمحو السعادة و الشقاوة و يثبتهما عن عمر بن الخطاب و ابن مسعود و أبى وائل و قتادة و أم الكتاب أصل الكتاب الذى أثبت فيه الحادثات و الكائنات و روى أبو قلابة عن ابن مسعود أنه كان يقول اللهم أن كنت كتبتنى فى الأشقياء فامحنى من الأشقياء و أثبتنى فى السعداء فإنک تمحو ما تشاء و تثبت و عندک أم الكتاب و روى مثل ذلک عن أئمتنا عليهم السلام فى دعواتهم المأثورة و روى عكرمة عن ابن عباس قال هما كتابان كتاب سوى أم الكتاب يمحو الله منه ما يشاء و يثبت و أم الكتاب لا يغير منه شىء و رواه عمران بن حصين عن النبى صلى الله عليه و آله و روى محمد بن مسلم عن أبى جعفر قال سألته عن ليلة القدر فقال ينزل الله فيها الملائكة و الكتبة إلى السماء الدنيا فيكتبون ما يكون من أمر السنة و ما يصيب العباد و أمر ما عنده موقوف له فيه المشيئة فيقدم منه ما يشاء و يؤخر ما يشاء و يمحو و يثبت و عنده أم الكتاب و روى الفضيل قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول العلم علمان علم علمه ملائكته و رسله و أنبياءه و علم

عنده مخزون لم يطلع عليه أحد يحدث فيه ما يشاء و روى زرارة عن حمران عن أبى عبد الله عليه السلام قال هما أمران موقوف و محتوم فما كان من محتوم أمضاه و ما كان من موقوف فله فيه المشيئة يقضى فيه ما يشاء

(و الخامس) أنه فى مثل تقتير الأرزاق و المحن و المصائب يثبته فى أم الكتاب ثم يزيله بالدعاء و الصدقة و فيه حث على الانقطاع إليه سبحانه؛

(و السادس) إنه يمحو بالتوبة جميع الذنوب و يثبت بدل الذنوب حسنات يبينه قوله ﴿ إِلَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صالِحاً فَأُولئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ ﴾ عن عكرمة؛

(و السابع) أنه يمحو ما يشاء من القرون و يثبت ما يشاء منها كقوله ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ ﴾ و قوله ﴿ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ ﴾ و روى ذلک عن على عليه السلام؛

(و الثامن) إنه يمحو ما يشاء يعنى القمر و يثبت يعنى الشمس و بيانه ﴿ فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً ﴾ عن السدى و أم الكتاب هو اللوح المحفوظ الذى لا يغير و لا يبدل لأن الكتب المنزلة انتسخت منه فالمحو و الإثبات إنما يقع فى الكتب المنتسخة لا فى أصل الكتاب عن أكثر المفسرين و قيل إن ابن عباس سأل كعبا عن أم الكتاب فقال علم الله ما هو خالق و ما خلقه عاملون فقال لعلمه كن كتابا فكان كتابا و قيل إنما سمى أم الكتاب لأنه الأصل الذى كتب فيه أو سيكون كذا و كذا لكل ما يكون فإذا وقع كتب أنه قد كان ما قيل إنه سيكون و الوجه فى ذلک ما فيه من المصلحة و الاعتبار لمن تفكر فيه من الملائكة الذين يشاهدونه إذا قابلوا ما يكون بما هو مكتوب فيه و علموا أن ما يحدث على كثرته قد أحصاه الله تعالى و علمه قبل أن يكون مع أن ذلک أهول فى الصدور و أعظم فى النفوس حتى كان من تصوره و فكر فيه شاهدا له ﴿ وَ إِنْ ما نُرِيَنَّكَ ﴾ يا محمد ﴿ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ﴾ أى نعد هؤلاء الكفار من نصر المؤمنين عليهم بتمكينک منهم بالقتل و الأسر و اغتنام الأموال ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ أى و نقبضنک إلينا قبل أن نريک ذلک و بين بهذا أنه يكون بعض ذلک فى حياته و بعضه بعد وفاته أى فلا تنتظر أن يكون جميع ذلک فى أيام حياتک و أن يكون مما لا بد أن تراه ﴿ فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسابُ ﴾ أى عليک أن تبلغهم ما أرسلناک به إليهم و تقول بما أمرناک بالقيام به و علينا حسابهم و مجازاتهم و الانتقام منهم إما عاجلا و إما آجلا و فى هذه دلالة على أن الإسلام سيظهر على سائر الأديان و يبطل الشرک فى أيامه و بعد وفاته و قد وقع المخبر به على وفق الخبر.

النظم

اتصلت الآية الأولى بما تقدمها من قولهم ﴿ لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ فبين سبحانه أنه بشر كما أن الرسل الذين كانوا قبله كانوا بشرا و البشر لا يقدر على الآيات بل إنما يأتى سبحانه بها إذا اقتضت المصلحة ذلک عن أبى مسلم و قيل إنه لما تقدم ذكر إرساله بين سبحانه أنه أرسل قبله بشرا كما أرسله فحاله مثل حالهم عن القاضى و إنما اتصلت الآية الثانية بقوله ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ ﴾ لأن الظاهر اقتضى أن يكون كل مكتوب لا يجوز محوه فبين سبحانه أنه يمحو ما يشاء و يثبت لئلا يتوهم أن المعصية مثبتة مع التوبة كما أنها كذلک قبل التوبة عن على بن عيسى و قيل لما نزلت ﴿ وَ ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ قالت قريش ما نراک يا محمد تملک شيئا فلقد فرغ من الأمر فأنزل هذه الآية تخويفا و وعيدا لهم إنا لو شئنا أحدثنا من أمرنا ما شئنا و نمحو و نثبت فى ليلة القدر ما نشاء من أرزاق الناس و مصائبهم عن مجاهد و إنما اتصل قوله ﴿ وَ إِنْ ما نُرِيَنَّكَ ﴾ الآية بما قبله من وعيد الله بالعذاب فبين سبحانه أنه يفعل ذلک لا محالة إما فى حياته أو بعد وفاته بشارة له و قيل إنه لما تقدم أن لكل أجل كتابا بين أن لعذابهم وقتا سيفعله فيه لا محالة إما فى حياته أو بعد وفاته.

***

أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها وَ اللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَ هُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ ﴿٤١﴾ وَ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَ سَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ ﴿٤٣﴾

ثم ذكر سبحانه ما يكون للكفار كالبينة على الاعتبار فقال ﴿ أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها ﴾ أى نقصدها ﴿ مِنْ أَطْرافِها ﴾ و اختلف فى معناه على أقوال:

(أحدها) أ و لم ير هؤلاء الكفار أنا ننقص أطراف الأرض بإماتة أهلها و مجازه ننقص أهلها من أطرافها كقوله ﴿ وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ أى أ فلا يخافون أن نفعل مثل ذلک بهم عن ابن عباس و قتادة و عكرمة؛

(و ثانيها) ننقصها بذهاب علمائها و فقهائها و خيار أهلها عن عطا و مجاهد و البلخى و روى نحو ذلک عن ابن عباس و سعيد بن جبير و عن أبى عبد الله عليه السلام قال عبد الله بن مسعود موت العالم ثلمة فى الإسلام لا يسدها شىء ما اختلف الليل و النهار؛

(و ثالثها) أن المراد نقصد الأرض ننقصها من أطرافها بالفتوح على المسلمين معناه فننقص من أهل الكفر و نزيد فى المسلمين يعنى ما دخل فى الإسلام من بلاد الشرك عن الحسن و الضحاك و مقاتل قال الضحاك أ و لم ير أهل مكة أنا نفتح لمحمدﷺ ما حولها من القرى و قال الزجاج: علم الله تعالى أن بيان ما وعد المشركون من قهرهم قد ظهر أى أ فلا يخافون أن نفتح لمحمد أرضهم كما فتحنا له غيرها و قد روى ذلک أيضا عن ابن عباس قال القاضى و هذا القول أصح لأنه يتصل بما وعده من إظهار دينه و نصرته؛

(و رابعها) أن معناه أ و لم يروا ما يحدث فى الدنيا من الخراب بعد العمارة و الموت بعد الحياة و النقصان بعد الزيادة عن الجبائى ﴿ وَ اللَّهُ يَحْكُمُ ﴾ أى يفصل الأمر ﴿ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ و لا راد لقضائه عن ابن عباس و معناه لا يعقب أحد حكمه بالرد و النقض ﴿ وَ هُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ ﴾ أى سريع المجازاة على أفعال العباد على الطاعات بالثواب و على المعاصى بالعقاب ثم بين سبحانه أن مكرهم يضمحل عند نزول العذاب بهم فقال ﴿ وَ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يريد أن الكفار الذين كانوا قبل هؤلاء قد مكروا بالمؤمنين و احتالوا فى كفرهم و دبروا فى تكذيب الرسل بما فى وسعهم فأبطل الله مكرهم كذلک يبطل مكر هؤلاء ﴿ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً ﴾ أى له الأمر و التدبير جميعا فيرد عليهم مكرهم بنصب الحجج لعباده و قيل معناه فالله يملک الجزاء على المكر عن أبى مسلم و قيل يريد بالمكر ما يفعل الله تعالى بهم من المكروه عن الجبائى ﴿ يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ فلا يخفى عليه ما يكسبه الإنسان من خير و شر لأنه عالم بجميع المعلومات و قيل يعلم ما يمكرونه فى أمر الرسول فيبطل أمرهم و يظهر أمره و دينه ﴿ وَ سَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ هذا تهديد لهم بأنهم سوف يعلمون من تكون له عاقبة الجنة حين يدخل المؤمنون الجنة و الكافرون النار و قيل معناه و سيعلمون لمن العاقبة المحمودة لكم أم لهم إذا أظهر الله دينه ﴿ وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لک يا محمد ﴿ لَسْتَ مُرْسَلًا ﴾ من جهة الله تعالى إلينا ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ ﴾ أى كفى الله شاهدا بينى و بينكم بما أظهر من الآيات و أبان من الدلالات على نبوتى ﴿ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ ﴾ قيل فيه أقوال:

(أحدها) أن من عنده علم الكتاب هو الله عن الحسن و الضحاک و سعيد بن جبير و اختاره الزجاج قال و يدل عليه قراءة من قرأ و من عنده علم الكتاب؛

(و الثانی) إن المراد به مؤمنوا أهل الكتاب منهم عبد الله بن سلام و سلمان الفارسی و تميم الدارى عن ابن عباس و قتادة و مجاهد و اختاره الجبائی و أنكر الأولون هذا القول بأن قالوا السورة مكية و هؤلاء أسلموا بعد الهجرة؛

(و الثالث) إن المراد به على بن أبی طالب و أئمة الهدى عليهم السلام عن أبی جعفر و أبی عبد الله عليه السلام و روى عن بريد بن معاوية عن أبی عبد الله أنه قال إيانا عنى و على أولنا و أفضلنا و خيرنا بعد النبی صلى الله عليه و آله و روى عنه عبد الله بن كثير أنه وضع يده على صدره ثم قال عندنا و الله علم الكتاب كملا و يؤيد ذلک ما روى عن الشعبی أنه قال ما أحد أعلم بكتاب الله بعد النبی من على بن أبی طالب عليه السلام و من الصالحين من أولاده و روى عن عاصم بن أبی النجود عن أبی عبد الرحمن السلمی قال ما رأيت أحدا أقرأ من على بن أبی طالب عليه السلام للقرآن و روى أبو عبد الرحمن أيضا عن عبد الله بن مسعود قال لو كنت أعلم أن أحدا أعلم بكتاب الله منی لأتيته قال فقلت له فعلی و قال أ و لم آته.